الفصل السابع عشر

في فائدة الآثار والحرص على المنع من العبث بها

قد ذكرنا في الأبواب السالفة طرفًا من الأسباب التي بعثت على تدمير هذه الآثار وما آل إليه أمرها الآن على يد بعض الوطنيين وغيرهم ما فيه الكفاية «راجع المقدمة والباب السابع» ولنذكر لك بعد ذلك شطرًا من فائدة بقائها مما لم تره في غير هذا الكتاب فنقول تنحصر فائدة حفظ الآثار في أمرين جليلين أحدهما مادي والآخر أدبي.

أما المادي فهو الشهرة التي جعلت لمصر اسمًا كبيرًا في جميع المسكونة جلبت به سراة الناس ومياسيرهم من الآفاق حتى صارت كأنها كعبة تشد لزيارتها الرحال وتنفق لأجلها الأموال وتختلف إلى ساحتها الأغراب العجم والأعراب وتهوى إليها الأجانب من كل ناحية وجانب ويبذلون النفس والنفيس لرؤية طيبة ومنفيس فتروج التجارة بهذه الزيارة وتنصلح الأحوال بإنتعاش الآمال وتزيد الأشغال وتكثر الأعمال و يهش وجه الدهر إلى الفقير بعد ما كان عبوسًا قطريرًا فتصير أيامه مواسم بثغور بواسم وبيان ذلك أننا إذا فرضنا أن عدد الوافدين في كل سنة لا يزيد عن الستة آلاف نفس ما بين رجال ونساء وأنفق بها كل امرئ منهم مائة وخمسة وعشرين جنيهًا انكليزيًا لبلغ ذلك سبعمائة وخمسين ألف جنيه وإذا فرضنا أن الذي يدخل في جيب شركات وابورات النيل وأصحاب الفنادق والخانات «اللوكندات» والتياترات والملاهي وثمن بضائع أفرنكية وأشربة روحيه ومكيفات وغير ذلك هو مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه نظير الربح الصافي بعد كل المصاريف لكان الباقي ستمائة ألف جنيه تدخل في جيب مصر خاصة منها عشرة آلاف إلى السكة الحديد ما بين مصر وإسكندرية وما بين إسكندرية والرمل وأربعة آلاف لمصلحة حفظ الآثار نظير رسم الفرجة على المتحف المصري والسياحة بالصعيد والباقي وهو خمسمائة وستة وثمانون ألف جنيه يدخل في جيب أهل مصر ما بين خدم ومترجمين بفنادق مصر والإسكندرية وخدم ومترجمين وملاحين بوابورات الشركات على النيل وعمال بورشها وخفراء وحامل الإشارات ومتعهدين بلوازم الزائرين بالصعيد وخفراء بالمحطات وملاحين بالزوارق «المعادي» وحمارين وسائقي العربات بالصعيد ومصر والإسكندرية وأجرت السفن المعروفة بالذهبيات وتلغرافات و بريد ومأكل ومشرب بالصعيد ومصاريف مستشفى خيرية للفقراء بقرية الأقصر على طرف

الخواجا كوك وثمن منسوجات و مصنوعات وطنية ومشرقية وتبرعات وهبات ومسامحات فضلًا عن الحركة العمومية ونمو الصادر والوارد وأرباح الجمرك وهذه الحسبة تقريبية وإلا فالحقيقية بمعزل عن ذلك بمراحل لأنها أقل ما يمكن ولما استفهمت من أحد شركات الوابورات علمت أن عدد الزائرين لا يقل في كل سنة عن الستة آلاف نفس وأن ما ينفقه كل واحد مدة إقامته بمصر يبلغ مائة وخمسين جنيهًا وعلمت أن بطرف هذه الشركة أربعين مترجمًا تختلف مرتباتهم ما بين ستة جنيهات إلى خمسة عشر جنيهًا شهريًا وبالإستفهام من حضرة مدير الآثار عن عدد السائحين في كل سنة قال إنه يبلغ لغاية السبعة آلاف نفس بفرض أن كل واحد ينفق مائة وعشرين جنيهًا وبالإستفهام من قبودان أحد الوابورات علمت أن مستخدميه خمسون نفسًا ما بين سواري وقبودان ورئيس وملاحين ومهندس وسواق وكومساري ومتعهد بالمأكولات وطباخين ووكيل بوسطه وفراشين ومترجمين وغير ذلك.

ومن البديهي أن سبب ذلك كله هو الإشتياق لرؤية تلك المباني القديمة التي إذا أتلفناها لم نر من هؤلاء الزائرين ديارًا ولا نافخ نار ولم ننتفع بدرهم ولا دينار فضلًا عن كساد البضائع والسلع الوطنية بدل رواجها مدة أربعة أشهر في كل سنة ولا يخفى أن رواج حال الحكومة مرتبط برواج حال الأمة وثروتها لأن الفلاح والتاجر والصانع إذا عجزوا عن دفع ما عليهم من الأموال كيف يكون حالها «راجع تاريخ مصر قبل حكم الدولة المحمدية العلوية بالجبرتي والخطط الجديدة» ولذا شبه أهل الصعيد موسم وقود الأجانب بمصر بموسم الحج الشريف عند عرب الحجاز أما ما تأخذه مصلحة حفظ الآثار من السياحين برسم الفرجة فتنفقه على إصلاح ما يلزم إصلاحه بالآثار فيحوّل هذا المبلغ إلى يد الوطني أيضًا لآن المقاولين والفعلة والعمال جميعهم وطنيون فكأن هذه النقود ما خرجت من يد الأجنبي إلا لتدخل في جيب الوطني إما مباشرة أو بواسطة فعلى ذلك لم يكن الحرص على بقاء الآثار قاصرًا على مجرد العبرة والتذكار أوضنا بما لم يوجد عند غيرنا بل صونا لأخبار الأولين ومنفعة للمصريين وتخليدًا لمجد الأوائل ولم أعن قحطان ووائل.

أما الأمر الأدبي فهو أن الآثار فخر مصر وحليتها ولا يجوز بأي وجه من الوجوه تجريدها من حليتها فضلًا عن كونها كطامور إشتمل على علوم ومعارف وفكاهات ولطائف وتواريخ الأولين وأسماء ملوك وسلاطين ودول تغلبت وأمم تقلبت وإنشاء ومحاضرات وقصص وحكايات وأسماء مدن وبلاد ورؤساء وقوّاد وأسفار حربية وأساطيل بحرية وقوانين وأحكام وحرب وسلام

ودفاع وهجوم وحاكم ومحكوم وغزوات بعيدة ونصرات عديدة وإختراعات مفيدة وعوائد وشيم ونصائح وحكم وجميع ذلك تراه على صميم الأحجار كأنه الأسفار فهي المرشد الأمين لعلوم الأولين وترجمان الأزمان التي توارت بالنسيان وها هي علماء الإفرنج تراوحنا وتغادينا ومؤلفاتهم تنبهنا وتنادينا وتقول قد إمتلأ الوطاب وعاد البلح إلى الأرطاب وانكشف المعمي وبان الاسم والمسمى وتقيدت الأوابد وإنجلت حقيقة ما بالمعابد وما كفى الإفرنج تقل أخبارها حتى نقلوا أحجارها من ذلك رواق صغير يعرف باسم إيوان الأسلاف كان صنعه الملك طوطوميس الثالث «من ملوك العائلة الثامنة عشرة» في معبد الكرنك بالصعيد ونقل إلى بلاد فرنسا وهو الآن في كتخانة باريس مرسوم عليه صورة هذا الملك واقفًا أمام ستين ملكًا من أسلافه يقدم لهم خالص عبوديته غير أنهم ليسوا على حسب ترييتهم في الحكم وكأنه اصطفاهم من بين باقي الملوك المصرية لحاجة لا نعلمها . ومنها رواق آخر نقل من معبد العرابة المدفونة إلى بلاد الإنكليز وموجود الآن بدار تحفها وهو للملك رمسيس الثاني «من العائلة التاسعة عشرة» ومطابق في ترتيب أسماء الملوك التي به للرواق الآتي وهو رواق بالمعبد نفسه من عمل الملك سيتي أبي رمسيس الأكبر وبه أسماء ستة وسبعين ملكًا مرتبين بحسب الحكم وهو قائم بعبدهم ومنها لوحة بسقارة لأحد أعيان القدماء بها ثمانية وخمسون ملكًا وكانوا يزعمون أن كل من خدم الوطن بصفاء نية وحسن طوية تذهب روحه بعد موته إلى أعلى عليين وتكون مع أرواح الملوك والسلاطين الذين أسعدوا الرعية وقاموا بفرائض الوطنية وهذا هو الباعث على كتابة أسماء الملوك وجعلها في قبره معه.

وبمقارنة أسماء ملوك معبد العرابة بجدول مانيطون المصري إتضح صحة الجميع ولو أن بالجدول بعض تحريف ظاهر وجميع ما ذكر كان مجهولًا قبل إكتشاف هذا القلم حتى كان المعلوم من تاريخ مصر مشكوكًا في صحته ولولا بقاء تلك الآثار لما علم شيء من الأخبار ولو كانت مجردة عن الفائدة كما زعم بعضنا لما كانت الدول الأجنبية تزاحمنا على إقتنائها وتأخذ أروقة برمتها تحلي بها دار تحفها وكتبخاناتها وتنقل مسلتي الإسكندرية إلى ديارها وتقلع منطقة فلك البروج من معبد دندره وتتحايل بكل ما يمكنها على إرسال كل ما تجده إلى بلادها ولا يخفى ما في ذلك من تكبد المشاق المادية والأدبية فضلًا عن كثرة الصرف وبذل النقود وها هي رعية كل دولة تترقب سنوح كل فرصة لذلك حتى زينوا ديارهم وبلادهم بما كان عندنا بعد ما جردونا منه ولو كنا جاريناهم في ميادين الفضل لقلنا نحن أحق بها وأهلها لكن غفلنا وسهروا وأهملنا فأخذوا

ورضينا باليسير وفرطنا في كثير وهاك حادثة تاريخية صغيرة وجدت مكتوبة على بعض الآثار قصها الملك «أمنما» الأول على ابنه الملك «أوزرتسن الأول» وهما من العائلة الثانية عشرة الطيبية أتينا بها لنعلم أن الآثار في سجل الأخبار وإليك صورتها «لما أتي الظلام تعشيت وسرحت في ميادين اللهو هنيهة ثم رقدت على فراش وطيء فوق سريري وغرقت في بحر الراحة في قصري وكادت تأخذني سنة من النوم وإذا بهم تجمعوا زمرًا وأحدقوا بالقصر وجاهروا بالعصيان وشق عصا الطاعة وكان اعترى جسمي فتور من النوم حتى صرت كثعبان الغيط فقمت وتأهبت وحملت السلاح في جنح الليل عالمًا أنه لا محيص عن القتال والمكافحة ولم يك معي من أشدد به أزري غير أعضائي فحملت عليهم حملة صادقة أوقعت بها الرعب في قلوبهم وكنت كلما أحمل على فئة منهم ترتد على أعقابها جبنا ومازلت بهم إلى أن فترت قوتهم وخار عزمهم وانكسرت قلوبهم فلم يجرؤا على قتالي حتى في الظلام فتشتتوا ولم يحصل لي أدنى حادث مفزع إلى أن قال ولو أن الجراد أكل الزرع وأهلك الحرث والنسل ولو أنهم تحالفوا على إلقاء الدسائس في قصري ولو أن النيل ماروي الأرض حتى جفت الصهاريج ونضب ماؤها ولو أنهم علموا بطفوليتك وصغر سنك وعدم إمكانك أن تمد يد المساعدة إليّ لم آل جهدًا في عمل ما يلزم منذ ما عرفت نفسي» فيؤخذ من هذه العبارة أربع فوائد إحداها أنه كان له منازع في الملك وربما كان استيلاؤه بعد إراقة الدماء في الحروب الطويلة ثانيتها كثرة المحن والمصائب التي توالت في عمره ثالثتها نشاطه في الأعمال وقوته في الحروب وهيبته في عين رعيته رابعتها نصيحته لولده ولكل ملك أتى بعده كأنه يقول خذ بالحزم وكن على بصيرة من الوقوع في مثل ما وقعت فيه وادأب في العمل وتبصر بالحكمة وقال له في موضع آخر ينصحه «اسمع يا بني ما ألقيه عليك وهو أنك صرت ملكًا على قسمي مصر وتحكم على الثلاثة أقاليم فأسلك في حكمك أحسن ما سلكه سلفك من الملوك وقوّ علائق المودّة بينك وبين رعيتك وإلا يتخلون عنك عند الخوف منك ولا تستوحش منهم ولا تنفرد عنهم ولا تقتصر على مواخاة الأغنياء والأشراف ولا تقبل في مجلسك كل من أتاك ممن لا تتحقق من خالص محبته وصافي مودّته» وهي نصيحة جليلة تكتب بماء العيون وفوائدها جمة لأنها حسنة من حسنات الآثار المشحونة بأمثالها من الآداب والعلوم وإليك مقالة أخرى أدبية لطيفة وجدت مكتوبة على الأحجار الآثرية وهي من إنشاء أحد الكتاب من العائلة الثانية عشرة أيضًا يفهمها ابنه ويستفزه لإكتساب المعارف وبإستقرائها تعلم حالة الضنك الزائد والإستبداد اللذين كانا بالديار المصرية في تلك الحقبة الدهرية وهناك نصها «قد نظرت يا

بني إلى الحدّاد وهو يزاول مهنته وواقف على فوهة التنور حتى صارت أصابع يديه مثل جلد التمساح وله رائحة كريهة أشد من رائحة بيض السمك وهل تظن يا بني أن باقي صانعي المعادن في راحة أحسن من الفلاح الذي نبت الحطب في غيطه ومتى جنّ عليه الليل وحقت له الراحة عاد للشغل ثانيًا بعد ما كلّ ساعداه من عمل يومه فيضطر أن يشتغل بالليل في ضوء المصباح أما النحات فرأيته وهو يشتغل في كل نوع من الأحجار الصلدة ومتى فرغ من شغل يومه وكلت يداه يستريح برهة وصنعته تقضي عليه أن يعود ثانيًا للشغل فهو يعمل من شروق الشمس لغروبها مع أنه قاعد القرفصاء إلى أن يختل تركيب ركبتيه وتتلف فقرات ظهره أما الحلاق فيشتغل أيضًا إلى المساء ومتى وجد عنده فرصة ليأكل فيها اتكأ على إحدى ذراعيه ليستريح ويطوف على المنازل ليبحث على شغل له فهو يتلف ذراعيه ليملأ بطنه كالنحل يأكل مما إدّخره أما الملاح فإنه ينزل بسفينته إلى إقليم «ناتو» ليكتسب أجرته فتتراكم عليه الأشغال و بمجرد ما يعود إلى حديقته أو يرجع إلى داره يصبح يوالى السفر ثانيًا أما البناء فأقول لك عليه إنه عرضة لداء النقرس ولشدة الرياح فإذا بنى وهو فوق الحائط تجشم المشاق والتعب حتى يلتصق بكرانيشها فيصير كالبشنين ويكل ساعداه من العمل ويختل هندام ثيابه ويأكل نفسه بنفسه كأن أصابعه خبزة ولا يغتسل إلا مرة واحدة في اليوم[1] ويتواضع للناس ليقبلوه في أشغالهم كأنه حجر الضامة ينتقل من خانة إلى أخرى وينتقل من بناء عشرة أذرع إلى مثلها ومتى أنهى عمله وتحصل على قوته يعود إلى داره ويضرب أولاده وإن شئت قلت لك على الحائك فإن حالته بالمنازل أسوأ من حالة النساء لأن ركبتيه تكونان موازيتين لصدره ولا يستنشق الهواء النقي فإذا قصر يومًا عن حياكة ما فرض عليه من الأقمشة ربطوه حتى يصير كالبشنين الذي ينبت في المستنقعات ولا يمكنه الخروج لرؤية النور مالم يرش الخفراء الموكلين بحفظه ويواسيهم أما صانع الأسلحة فالويل له لأنه إذا سافر إلى البلاد الأجنبية يدفع مغارم كثيرة لأجرة الحمير ولمبيتهم ومتى صار في الطريق فبمجرد ما يصل إلى حديقته أو يرجع إلى داره مساء يصبح على جناح السفر ثانيًا أما الساعي فواحزنا له لأنه متى عزم على السفر يقدم ماله بين أولاده خشية أن يغتاله وحش أو يقتله أحد أهالي آسيا وهل تعلم ماذا يجري عليه حينما يكون بمصر فإنه بمجرد ما يصل إلى حديقته أو يرجع إلى داره يصبح راكبًا متن الطريق فإذا سافر ركبته الهموم وإحتاط به الفقر أما الدباغ فواها

[1] هذه العبارة تفيد شدة الحرص على النظافة حتى رثى لحال من يغتسل مرة واحدة في كل يوم.

له لأنك ترى أصبعه كأنها السمك العفن وعينيه مكسورتين من التعب ويديه في حركة مستمرة وتمضي عليه الأوقات وهو يمزق في الجلد وثيابه رثة شنيعة المنظر أما صانع الأحذية فهو أسوأ حالًا من الجميع لأنه دائمًا يتكفف الصدقات لفقره وصحته كسمكة مفقوعة و يقرض الجلد بأسنانه وإني رأيت الشدائد وقاسيت الأهوال وإمتطيت غارب التعب وشربت الحلو والمر وانتقدت الأمور نقد بصير فلم أر أجمل من التحلي بالمعارف وإني ناصح لك يا بني أن تجعلها نصب عينيك فإغطس فيها كما يغوص الغائص في الماء فإذا فعلت ذلك رأيت صحة قولي وما إخترتها لك إلا لأنها روح كل عالم «فانت بالروح لا بالجسم إنسان» وما رغبتك فيها إلا لأنها أفضل جميع ما تراه فمن تحلى بها كبر في عين الناس واختاروه لقضاء مصالحهم وإعلم أن المعارف أمان من الفقر ومن عرف شيئًا منها ساد على غيره وليس الأمر كذلك عند أرباب الصنائع فإن كل رفيق من أهلها يبغض رفيقه وما رأيت كاتبًا متجملًا بها قالوا له أو ألزموه أن يشتغل لأجل فلان وكل يوم يمضي عليك وأنت بالمدرسة يخلد لك ذكرًا جميلًا ما بقيت الجبال فإنهض وبادر لتحصيل ما اخترته لك فإنه يبعد الأعداء عنك».

وقد أكثرنا من سرد النصوص الأثرية ليعرف القارئ ما لها من الفوائد ويقدرها حق قدرها ولا ينسبنا إلى الغلوّ والمبالغة أو الإطراء في مدحها.